المقتطف

الجزء الرابع من المجلد السادس والعشرين

١ ابريل (نيسان) سنة ١٩٠١ — الموافق ١٢ ذي الحجة سنة ١٣١٨

معرض باريس العام

الفصل السادس عشر في مصالح الجمهور

اشرت في الفصل السابق الى علل العمران التي يحاول فضلاء الاوربيين مداواتها . وقد انشأ مديرو المعرض قصراً خفياً لذلك ليجتمع فيهِ عمّاله الارض و يعرضوا ما استعملوهُ من الوسائل لمداواة علل العمران ونفع الجمهور — لحفظ الاطفال واشراك العمال في ربح اصحاب الاعمال وتأليف الشركات الصناعية والزراعية ومد يد المعونة الى الفلاحين ووقاية العمّال من مضارّ المعامل وبناء البيوت الصحية لهم وتعليمهم وتعليم اولادهم واعداد ما يلزم لهم من التدابير الصحية ونحو ذلك مما يتصل بهذه المواضيع

وعرضت الدول المختلفة ولجالسها البلدية شرح الوسائل التي تستخدمها في هذه المسائل بخرائط كثيرة واحصاءات عديدة وكتب شتى وجرائد ومجلات يظهر منها مقدار ما تم لها من النجاح وما لا تزال متفقرة اليهِ

وقد زرت هذا القصر قبلما زرت اكثر مباني المعرض وزرتهُ ثانية بعد اول مشاهدتي اكثرها وخرجت منهُ كاسف البال لان كل ما رأيتهُ في القصور الاخرى من نتائج الصناعة والزراعة يمكن ان يقلّد او يشترى بالمال واما ما فيهِ من الوسائل والاساليب فلا يشترى وقلّما ينفع فيهِ التقليد والتمثيل. فاذا لم تستطع ان نصنع آلة بخارية مثل الآلات التي صنعها الفرنسويون او الاميركيون او الالمان والبلجيون او غيرهم لم يتعذر علينا ان نشتري منهم واحدة منها . واذا تعذّر علينا ان نصنع نظارة فلكية مثل النظارات الفرنسوية او الالمانية لم يتعذّر علينا ان نبتاع واحدة منها . ولا يتعذر علينا ان نجلب مطبعة من المطابع التي تطبع خمسين الف نسخة في

الساعة ونشتري انفس الكتب ونطالعها ونتعلم ما فيها كما يتعلمهُ الاوربيون والاميركيون . ولكن اذا اتينا الى الوسائل التي تستعملها الحكومات والمجالس البلدية والجمعيات العلمية والادبية لترقية الامة وحفظ عمرانها ونزع شرور الفساد منهُ وقفنا امام "عنق كريم لا يباع ولا يعار" امام نظام محكم الحلق ينتظم فيهِ ألوف من كبار العقول اهل الحنكة والدراية والعفة والتفاني في خدمة الامة . نظام لا نستطيع نقلهُ الى بلادنا ولا النسج على منوالهِ ما لم تصر حكومتنا مثل حكوماتهم ورجالنا مثل رجالهم وهمتنا مثل همتهم . وهذا شأو لا ندركهُ الاَّ بعد سنوات كثيرة ولو سعينا اليهِ سعيًا حثيثًا وهو الفارق الاكبر بين المدنية الاوربية الحاضرة وبين مدنية العرب والروم واليونان والمصريين والاشوريين فان تاريخ تلك الامم يكاد يكون تاريخ ملوكها وامرائها وحروبها وغزواتها اما مصالح الجمهور فكانت مهملة متروكة الى احوال المكان وغير الزمان اذا افلح الملوك في الغزو والنهب كثر رزق الرعية والغمست في الترف واذا اجدبت الارض وقلت الخيرات ماتت الرعية جوعًا واذا دخل البلاد وباء انتشر فيها انتشار النار في الهشيم فيموت بهِ ربع السكان او ثلثهم او نصفهم ولذلك كان يمرُّ القرن بعد القرن ولا يزيد عدد الامة بل قد ينقص . اعتبرْ ذلك بسكان هذا القطر فانهم كانوا وقت الفتح نحو ثمانية ملايين من النفوس ومرَّ عليهم الف ومئتا سنة لم يزيدوا فيها بل نقصوا رويدًا رويدًا الى ان بلغوا مليونين من النفوس في اوائل القرن الماضي ثم لما صلحت امورهم في هذه السنين الاخيرة صارت زيادتهم السنوية نحو ثلاثة في المئة وصار الوباء الجارف اذا دخل قطرهم لا يستطيع ان يفتك بمئة من سكانهِ ولو بقي فيهِ شهورًا كثيرة

لكن ما نراهُ من الاصلاح في احوال هذا القطر مستعارٌ اكثرهُ والقائمون بهِ من غير اهلهِ في الغالب ولا يتيسر الآن لاهلهِ ولا لغيرهم من اهل المشرق ان يستنبطوا الاساليب التي استنبطها الاوربيون لمداواة ادواء الحضارة ولا ان يحسنوا استعمالها لو اقتبسوها من غيرهم وليس من مصلحتهم ان يكونوا معتمدين على الاوربيين القائمين بها

وفي هذا القصر بهو كبير اجتمع فيهِ نوَّاب الجمعيات العلمية المختلفة وبحثوا في كل موضوع من مواضيع العلوم والفنون والمعارف على انواعها كأنهُ معرض عرضوا فيهِ ثمار العقول وبنات الافكار لكي يستفيد كل احد منهم مما اكتشفهُ غيرهُ او استنبطهُ او وقف عليهِ . ولا ندري كيف وسع الوقت المؤتمرات العديدة التي اجتمعت فيهِ ولا تيسر لنا حضور اجتماع من اجتماعاتها لاننا وصلنا باريس بعد انفضاض اكثرها ولكننا لقينا كثيرين من اعضائها في ليلة حافلة احياها البرنس رولند نبوليون وهم من اكبر علماء اوربا واميركا وبعض علماء الهند وكثيرات من شهيرات النساء وبعضهم متطرِّف

في آرائهِ شأن كثيرين من الذين يبحثون في موضوع واحد و يطيلون النظر فيهِ ولكن لكثرهم من جلَّة علماء الارض ولذلك لا يستغرب اجتناء الفوائد الجلى من مجتمعاتهم .

الفصل السابع عشر في الاستعمار والمستعمرات

انكلترا اوسع الدول مستعمرات وانجحها استعماراً فان مساحة مستعمراتها والممالك الخاضعة لها نحو احد عشر مليون ميل مربع وعدد سكانها اكثر من ٣٥ مليوناً من النفوس ونالوها فرنسا فقد بلغت مساحة مستعمراتها الآن ثلاثة ملايين ومئتي الف ميل مربع اي ما يقارب مساحة اوربا كلها وعدد سكانها خمسون مليوناً ثم هولندا ومساحة مستعمراتها نحو ٧٥٠ الف ميل مربع وعدد سكانها نحو ٣٣ مليوناً وتأتي بقدهن المانيا وروسيا والولايات المتحدة الاميركية

وقد تبارت هذه الدول في عرض ما في مستعمراتها من الثروة الطبيعية والاعمال الصناعية كأن الشركات التي اتفقت على معارضها غرضها الاول ترغيب الناس في ابتياع اسيادها سواء كانت زراعية او صناعية او تجارية وغرض رجال الحكومة الذين عرضوا المعروضات "الرسمية" ان يقنعوا ابناء بلدانهم انهم قاموا بما يُطلب منهم ولم يأخذوا اجورهم سدى . ومهما يكن من هذه الاغراض فلا شبهة في ان المعروضات الرسمية التي ابانت بها هذه الدول عن حال مستعمراتها تشهد لها انها مهتمة شديد الاهتمام بنشر اساليب الحضارة ومساعدة رعاياها على استثمار خيرات الارض ومساعدة اهالي المستعمرات انفسهم على ما يصلح حالهم ويخفف عليهم مشاق الحياة واطلاق يد العلماء في البحث والتنقيب عن المتحجرات والعاديات والجماد والنبات والحيوان والعادات والاخلاق وغير ذلك مما لا يخلو البحث فيهِ من فائدة علمية

والقول الشائع ان فرنسا غير ناجحة في مستعمراتها ولكنها ابانت في ما عرضتهُ في هذا الفصل ان الفلاح قرين اعمالها في كل مستعمراتها حتى جزيرة مدغسكر احدثهن استعماراً فانها بنت لها بناء كبيراً خارج التروكادرو على نسق قصور الملوك الوطنيين في مدغسكر وبنت حوله اكواخاً كثيرة اسكنت فيها اناساً من المدغسكريين انفسهم حتى تظهر كيفية معيشتهم في بلادهم وعرضت في هذا القصر ما لا يحيط بهِ وصف مما يستدل بهِ على غنى تلك الجزيرة ووفرة خيراتها وانواع تربتها وتاريخ اهلها وعاداتهم واخلاقهم فترى فيهِ ثياب ملوكها وملكاتها وحلاهم وتيجانهم وآنيتهم الذهبية والفضية . ولا يُعلَم كم من هذه الاشياء صنعهُ اهالي مدغسكر انفسهم وكم منها صنعهُ الاوربيون المستوطنون عندهم او جلبوهُ لهم من اوربا وباعوهم اياهُ باستقلالهم لكن يظهر من انواع الاسلحة المعروضة ان بعضها من عمل اهالي مدغسكر وانهم كانوا على شيء من الصناعة قبل ان امتلكت فرنسا بلادهم او دخلها الاوربيون ويؤيد ذلك اصنام

الخشب المعروضة فان بعضها حسن عليهِ لمحة من الاتقان ولو كان اكثرها في منتهى الشناعة

ويظهر اهتمام الفرنسويين الشديد بهذه الجزيرة من بحث علمائهم في كل ما يتعلق بتاريخها الطبيعي فترى هناك امثلة كثيرة من حيواناتها ولاسيما قرودها الكثيرة والسلاحف الكبيرة التي كانت عائشة فيها وانقرضت منها الآن والكركدن الصغير الذي انقرض منها ايضاً والطائر المسمى ايبورنس الذي كان معاصرًا للانسان ثم انقرض منها وقد عُرضت بيضة كبيرة من بيضهِ قطرها الاطول نحو ٣٥ سنتمترًا . والحشرات على انواعها والاصداف والاسماك والعشائش المنسوجة نسجًا ومصنوعات الاهالي واساليب انتقالهم في الخفات وعلى الثيران . والمنسوجات الحريرية والقطنية وهي كثيرة الانواع تضاهي المنسوجات الاوربية في اختلاف اشكالها وتنوُّع ألوانها . بينها منسوجات حرير العناكب وقد عُرضت هذه العناكب وحريرها وهو اصفر ذهبي لامع ومنسوجاتهُ متينة وغطاء السرير المعروض هناك لم ينسج من حريرها على ما شاع بل من حرير دودة اكبر من دود الحرير العادي عرضت هناك ايضاً . والظاهر ان اكثر هذه المصنوعات صنعها الاوربيون النازلون في الجزيرة ولم يكن سكانها الأَ صناعًا عندهم . وعُرضت ايضاً حاصلات البلاد من الكاوتشوك والبن (وبعض انواعهِ كبير الحب كالفول) والصمغ العربي والكوبال والشمع والخشب والجلد والبطاطس وثمر شجر الخبز وهو كبير خشن اخضر اللون. والمنجو والرمان والصبر والشاي والزعفران والقرفة والقانلاَّ والكاكو والفول السوداني والارز والقمح والذرة والصبر والاناناس والموز والليمون

والظاهر ان الذهب كثير في تلك الجزيرة فقد أُستخرج منهُ من سنة ١٨٨٨ الى سنة ١٨٩٩ ما تزيد قيمتهُ على خمسة ملايين من الفرنكات

وقد اشرت قبلاً الى مناظر مدغسكر التي عرضت في هذا البناء وهي صور كبيرة تظهر فيها تلك البلاد بحورها وبرورها وسهولها وحزونها وجبالها ووهادها ومدنها وقراها ومواقع الحرب التي آثارها الفرنسويون على اهلها فملكوا بها جزيرتهم واسروا ملكتهم. والصور من نوع البنوراما وقد احسن صناعها رسمها والقاء النور والظل عليها حتى يحسب من رآها انهُ رأى جزيرة مدغسكر وضرب في ارجائها وشاهد معارك القتال فيها وما تقلَّب عليها من الشؤون منذ عشر سنوات الى الآن

واجاد الفرنسويون في معارض تونس والجزائر والسنغال ودهومي والنيغر وانام والتنكين كما اجادوا في معرض مدغسكر حتى لقد تغني مشاهدة هذه المعارض عن الرحلة الى تلك البلدان القاصية وعرضوا صورًا كلية للبلاد التي قصدوها فالناظر في معرض الجزائر مثلاً يرى امثلة

المباني الفاخرة في تلك البلاد وازياء الناس وطرق معيشتهم وحاصلات حقولهم ومعادن ارضهم وما استفادوهُ من استيلاء الفرنسويين عليهم . لكن الشرقيَّ يأسف لان الوطنيين من اهالي تلك البلاد لم يجاروا الفرنسويين في عرض ما يدلُّ على ارتقائهم الادبي والمادي بل عرضوا امورًا دنيئة سمجة كالرقص والخلاعة ومصنوعاتٍ حقيرةً زرية ما كان اغناهم عن عرضها. وكأن العارضين خدعوا اخوانهم الذين حضروا بهم الى عاصمة فرنسا فلم يوفوهم اجورهم وكثيرًا ما كنتُ اراهم يتخاصمون ويتشاتمون وقال لي بعض التونسيين والجزائريين انهم كانوا يبيتون احيانًا على الطوى ليس لهم ما يقوتهم

وكما ادخل الفرنسويون حسنات العمران الاوربي الى مستعمراتهم ادخلوا اليها سيآتهِ كالسكر والقمار والتهتُّك. ولو لم يثبت من تاريخ الانسان ان الصلاح يغلب على الطلاح باخيرًا لخيف من غلبة السيآت على الحسنات وانقراض السكان من هذه المستعمرات

ومعارض المستعمرات الانكليزية لا يظهر فيها ان الانكليز يهتمون بالبحث النظري قدر الفرنسويين ولكن لا شبهة في انهم يهتمون مثلهم او اكثر منهم بالبحث العملي بالعدانة والفلاحة والصناعة والتجارة . ففي معرض استراليا ما لا يحصى من شذور الذهب وحجارتهِ وفيهِ هَرَم كبير يمثل ما استخرجوهُ من الذهب من تلك البلاد وهو من سنة ١٨٨٦ الى سنة ١٨٩٩ اي ستة عشر مليونًا و ٤٧٩ الفًا و ٣٨٣ جنيهًا واستخرجوا سنة ١٨٩٩ وحدها ١ ٦٤٣ ٨٧٥ اوقية تساوي ٦ ٢٤٦ ٧٢٨ جنيهًا. واكبر شذرة من شذور الذهب الاسترالي المعروضة هناك طولها نحو ٢٠ سنتمترًا وعرضها كذلك وسمكها نحو ١٠ سنتمترات ووزنها ٤١٣ اوقية وقيمة ذهبها ١٣٤٨ جنيهًا . ويقال انهُ وجد في حفرة واحدة نحو سبعين رطلاً من التبر

ومن معروضات استراليا اللؤلؤ ومنهُ تسعة حبوب كبيرة في شكل صليب . والفحم الحجري وانواع الرخام والخشب الملون. وحسبُ استراليا وحسب الانكليز معمريها ان عدد سكانها منهم يبلغ الآن نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون وتبلغ قيمة صادراتهم في السنة سبعين مليونًا من الجنيهات وقيمة وارداتهم ستين مليونًا ودخل حكومتهم السنوي نحو سبعة وعشرين مليونًا من الجنيهات اي ان دخل حكومة استراليا نحو ضعفي دخل الحكومة العثمانية مع ان سكان استراليا نحو عشر سكان البلاد العثمانية . ولم يتفق لامة من امم الارض ان عمَّرت بلادًا كما عمَّر الانكليز كندا واستراليا وزيلندا الجديدة ونحو ذلك من البلدان التي تزلوها فلا عجب اذا فاخروا الامم في ذلك واعترف لهم الجميع انهم اقدر الناس على الاستعمار